

مقدمة المترجم

لا تزال فلسفة يورغن هابرماس Jürgen Habermas إلى اليوم وفي بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين تشع نضارة ووجاهة، زاخرة بمفاهيم ومفردات الفعل التواصلي، ما بعد الميتافيزيقي، الحداثة والعقلانية، الحق، إبستمولوجيا التواصل وأخلاق المناقشة.

اليوم وبعد قرابة مائة سنة من قيام مدرسة فرانكفورت L'École de Francfort التي ينتمي إليها فيلسوفنا هابرماس ويمثل مرحلة منها هي مرحلة جيلها الثاني، تظل الأهداف التي قامت من أجلها هذه المدرسة والأفكار التي تأسست عليها - إحدى أكثر المدارس الفلسفية في القرن العشرين إشعاعا وتنويرا - متغلغلة وحاضرة في الثقافة الفلسفية الحالية، حاضرة بمسؤولياتها النقدية وبطروحاتها الداعية إلى وصل الفلسفة بالعلوم الاجتماعية وإلى دراسة الظاهرة الإنسانية (الاجتماعية) بتضافر جهود الفروع المتداخلة.

فقد تجلّت في المبادئ العامة للنظرية النقدية الخلفيات النظرية، عريقة المنبت والأصل في التراث الفلسفي الألماني وضمت الأصول الكانطية Kantisme والهيغلية Hégélianisme والماركسية Marxisme والنييتشوية Nietzscheisme وصارت هي بدورها - أي المرحلة الأولى للمدرسة - روافد هامة في بناء الفلسفة الهابرماسية حينما جعلت من نصوص أدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وماركوز Marcuse دعامة ضرورية لمواصلة مشوار الفكر الفلسفي.

مع هذا، ففلسفة هابرماس لم تنش على ذاتها مغلقة على نفسها سبل التواصل وهي التي فلسفته وخصصت له محاولات عدة لذا انفتحت على الطروحات الفلسفية الأخرى في الثقافات الفلسفية الفرنسية، الأمريكية والإنجليزية وتجاوزت معها بشأن الحداثة وما بعد الحداثة فكانت لها وصلات مهمة وجدالات كبيرة مع فلاسفة الاختلاف - فوكو Foucault ودولوز Deleuze ودريدا Derrida - وأيضا مع الأنغلوساكسون - رورتي Rorty وتاييلور Taylor وراولس Rawls - .

لئن كان موضوع الحداثة وما بعد الحداثة شاملا متضمنا للمواضيع الفلسفية الأخرى إلا أن هابرماس فتح جبهات عريضة للنقاش حول المجتمع والحق والفضاء العام والعدالة والفن والديمقراطية واللغة وغيرها من المواضيع التي شكلت البناء الفلسفي لدى هابرماس. في المنحى الفكري لـ هابرماس نثر على تلك الفكرة القريبة من عقول زعماء مدرسة فراكفورت وهي من أسسها، أقصد البحث الدائم عن توطيد علاقة الفلسفة بالعلوم وخاصة الاجتماعية منها. يكفي في هذا المقام التذكير بأن اسم المدرسة أي معهد الأبحاث الاجتماعية يكشف عن عمق هذا الهدف لدى هوركهايمر وأدورنو والجيل التالي لهما.

هذه الفكرة التي جاءت بعد فترة غير قصيرة كانت فيها حمى استقلالية العلوم - لا سيما الإنسانية والاجتماعية منها - في القرن التاسع عشر تحتاج جميع مناحي الثقافة الإنسانية، بلغ مداها درجة تفتيت وتشظي كل حقل علمي إلى علوم وتخصصات. بيد أن فلاسفة مدرسة فرانكفورت كانوا ذوي توجه آخر تتعاون فيه الفروع العلمية وتتضافر جهود أصحابها بغية، ليس فقط تقديم نتائج أفضل من منظور

شمولية النظرة التي يفتقدها التخصص الدقيق، وهي من النقاط السلبية التي أشار إليها أوغست كونت Auguste Comte في تقييمه للفلسفة الوضعية، إنما كذلك بإعادة اللحمة والإبقاء على التقاطعات المعرفية وتعزيزها وهو ما يفضي في كثير من الأحيان إلى ما يعرف بتزاج الفروع وتداخلها interdisciplinarité.

إن محاولة الإبقاء على صلة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية قوية لا يعني الاحتفاظ بالإطار الإستمولوجي، الذي تكون الفلسفة من الناحية النظرية، صاحبة السيادة في ممارسة تحليلاتها المعرفية لإمداد الفروع الأخرى بما تحتاجه من أبعاد فكرية ومنهجية، إنما بالأساس هو دعوة متجددة للانشغال الفلسفي بالواقع وتكريس البعد العملي في مهام الفلسفة وهو في الآن نفسه نفي ورفض للقول بموت الفلسفة. إن الجهد النقدي الذي ندبت له مدرسة فرانكفورت وقتها وجهدها هو الطابع الخاص الذي تميزت به هذه المدرسة فعدت معروفة به، مدافعة ومنافحة عن إمكاناته وقدراته على فهم وتفسير الظواهر التي تصاحب حياة الإنسان وتحرك الحياة الاجتماعية.

من هذه الزاوية بالتحديد والتي هي من صميم اهتمامات مؤلف الكتاب، حيث أنه يعمل كأستاذ وباحث بجامعة باريس 10 ضمن مجالات تاريخ وإستمولوجيا العلوم الإنسانية والاجتماعية وبشكل خاص التحليل النفسي والسوسيولوجيا وكذلك تفاعلات الفلسفة مع العلوم الاجتماعية.

ستيفان هابر Stéphane Haber يعتبر من المختصين في مدرسة فرانكفورت وفي فلسفة هابرماس وقد خصص مجموعة من الدراسات والمقالات لمناقشة وعرض ونقد أفكار فلاسفة النقد الأوائل (هوركهائمر وأدورنو) والحاليين (هابرماس وهونيث) فأبحاثه تنصب على البحث في

النظرية الاجتماعية والسياسية بوجه خاص وعلى فلسفة العلوم الإنسانية بوجه عام. وقد بدأ بنشر أول أعماله حول العلوم الإنسانية سنة 1995 ثم هذا الكتاب الذي ننقله اليوم إلى اللغة العربية - هابرماس والسوسيولوجيا سنة 1998م بعد ذلك مفردات مدرسة فرانكفورت بالاشتراك مع إيف كيسيه Yves Cusset سنة 2001 ليعود مجددا إلى هابرماس في عمل موسوم، مقدمة إلى هابرماس سنة 2002 كما صدر له سنة 2006 نقد معاداة النزعة الطبيعية وبعدها بسنة أي في 2007 كتاب الاغتراب وفي سنة 2009 نشر مؤلف حول الإنسان المحروم: تراث نقدي من ماركس إلى هونيث.

إضافة إلى هذه المؤلفات فقد أشرف على أعمال جماعية:

- الفعل في الفلسفة المعاصرة سنة 2004.
- هابرماس وفوكو. مسارات متقاطعة، مجاهات نقدية إشراف مزدوج مع إيف كيسيه سنة 2006
- من الأمراض الاجتماعية إلى الأمراض الذهنية سنة 2010.

وللمؤلف أيضا ترجمات لأعمال فلاسفة مدرسة فرانكفورت مثل ترجمته لكتاب أكسيل هونيث Axel Honeth التشيؤ La Réification سنة 2007. علاوة على هذه المؤلفات فله العديد من المقالات المنشورة في مجلات مختلفة تدور في معظمها حول اهتماماته المتصلة بتاريخ الفلسفة المعاصرة وبالمشكلات المعاصرة للنظرية الاجتماعية والسياسية (النظرية النقدية، الديمقراطية، النزعة الإيكولوجية، نظرية الأمراض الاجتماعية، التفاعل بين النفسي والاجتماعي) وبفلسفة العلوم الإنسانية وبالإشكاليات المرتبطة بالتفاعلات بين المجتمع والطبيعة.

وبتقديمنا هذا العمل إلى قراء اللغة العربية الذي نأمل أن يضيف لبنة جديدة ضمن مسار الأبحاث الفلسفية المتخصصة لفكر يورغن

هابرماس التي دأب بعض زملائنا على ترجمة نصوصه وما رافقها من شرح وتعليق.

ولا يفوتني في الأخير أن أنبه إلى الاختصارات الموجودة في متن الكتاب وهي خاصة بمؤلفات هابرماس، وضعها المؤلف مميزة في كتابتها بخط مائل تفاديا لتكرار عناوين الكتب وهذه الاختصارات كالآتي:

TP: Théorie et pratique النظرية والممارسة (1963)

LSS: Logique des sciences sociales منطق العلوم

الاجتماعية (1967)

CI: Connaissance et intérêt المعرفة والمصلحة (1968)

TS: La technique et la science comme idéologie التقنية

والعلم كإيديولوجيا (1968)

IAC: Théorie de l'agir communicationnel نظرية الفعل

التواصلي (1981)

MC: Morale et communication الأخلاق والتواصل (1983)

ED: De l'éthique de la discussion في أخلاق المناقشة

(1991)

DD: Droit et démocratie الحق والديمقراطية (1992).

د. محمد جديدي

مقدمة المؤلف

بإمكاننا أن نعتبر هيغل* Hegel بداية لتحوّل ملاحظ حصل في الطريقة التي تتمثل بها الفلسفة ذاتها. هذه الأخيرة تنتهي في الواقع إلى تقبّل تاريخيتها الخاصة (أي في الآن نفسه ارتباطها بأفكار الماضي واندماجها في المرحلة التي تتجلى فيها)، وخاصة أن تضع لنفسها علنا كمهمة فهم العالم التاريخي الذي هو معاصر لها. إنها تضم إلى برنامجها المغزى من «إدراك زمانها بالفكر *saisir son temps par la pensée*» بل وتروم إلى إعادة تعريف ذاتها بالنظر إلى هذا المغزى. مع ذلك، فأن يتحقق هذا التحول في إطار المثالية المطلقة وفي ظل اقتضاء ميتافيزيقا

* جورج فلهالم فريديريك هيغل George Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) فيلسوف ألماني ذو نزعة مثالية، عرف في اوساط الفلاسفة والمثقفين عموما المحدثين والمعاصرين بتأثيره القوي على المؤيدين والمعارضين له على السواء، تبلورت معه الفلسفة الألمانية الحديثة التي دشنها كانط (عقلانية نقدية) ثم تطورت مع شلينغ (مثالية ذاتية) وفيخته (مثالية موضوعية) إلى أن صارت مطلقة مع هيغل. تقوم فلسفة هيغل برمتها على الفكر كأساس للوجود (المطابقة بين الوجود والفكر في مبدأ واحد هو التصور) والمعرفة والتاريخ وهو متطور من حيث الفكر والصورة والماهية وهكذا صاغ هيغل مذهبه على الفكر الجدلي (التطور بواسطة الجدل، جدل الفكرة ونقيضها والمركب بينهما $thèse+antithèse=synthèse$) ليس كطريقة عقلية فحسب وإنما حياة التصور ذاتها تكمن في تاريخها الجدلي وقد كان محور تحليله في الفن والدين والفلسفة. من أهم آثاره الفكرية: فينومينولوجيا (ظواهرية) الروح (1807)، موسوعة العلوم الفلسفية (علم المنطق) (1812-1816)، مبادئ فلسفة الحق (1821). (المترجم)

ثقيلة للتاريخ، بمعنى لفكر يزعم تبيان المعنى النهائي ومن ثمة إقامة بشكل نظري (تأملي) تأويلاً نهائياً للحاضر كما للماضي، يطرح مشكلاً: ذلك المتصل بكيف يمكن لتجديد هيغل، حول هذه النقطة المحددة، أن ينفصل عن توجهاته الخاصة بنسقه، وهي وحدها من يمنحه على ما يبدو خلفية (قاعدة). إن الإجابة البسيطة جداً حول هذا التساؤل، والأكثر مصداقية كذلك، يمكن صياغتها كالآتي: في ظل سياق ما بعد ميتافيزيقي، يمكن للفلسفة أن تقبل تاريخيتها وتؤكد ميلها للتفكير في الحاضر التاريخي شريطة إقامة روابط راسخة، وهي جوهرية لمسعاها الخاص، مع المعارف الوضعية التي تأخذ سلفاً هذا الحاضر نفسه موضوعاً وتكرس ذاتها لفحصه الإمبريقي. إذن، يتوجب عليها أن تقيم ارتباطاً عضوياً مع العلوم الاجتماعية، بالقدر الذي يمكن معه افتراض أن هذه الأخيرة تعمل من بعد حتى على تطوير معرفة منهجية وإمبريقية مبررة عن العالم المعاصر، ومن دونه يكون كل خطاب عن الحاضر التاريخي مهدد بأن يتهم بكونه فارغاً واعتباطياً.

في القرن العشرين، حتى وإن كانت بعيدة عن تشكيل الاتجاه الوحيد الذي دافع عنها، فمن دون شك تعتبر «النظرية النقدية Théorie critique» المؤسسة من طرف هوركهايمر* Horkheimer

* ماكس هوركهايمر Max Horkheimer فيلسوف وعالم اجتماع ألماني (1895-1973)، مدير معهد الدراسات الاجتماعية من 1930 إلى 1969، أحد أعضاء مدرسة فراكفورت (النظرية النقدية) ومن مؤسسيها اهتم بالأساس بتقديم سوسيولوجيا مادية وإنسانية تركز على منطلقات ماركسية وذات توجهات عمالية يلعب فيها النقد المتعدد الفروع (فلسفة، علم الاجتماع، اقتصاد، علم النفس) دوراً مهماً. من أهم مؤلفاته: جدل الأنوار بالاشتراك مع أدورنو (1947)، نحو نقد العقل الآداتي (1967)، النظرية التقليدية والنظرية النقدية (1970). (المترجم)

ومساعدية هي التي حاولت توضيح هذا الحل بأكثر وعي وأكثر عزم¹. فقد أكد هوركهايمر بداية ارتباطه بـ هيغل وذلك بتطويره للفكرة التي مفادها أن الفلسفة لا يمكنها اليوم الاستمرار بأداء مهامها الكلاسيكية، وبالخصوص مهامها النقدية والتحريرية، إلا إذا أصبحت فكرا للحاضر التاريخي. بيد أن إسهامه الحقيقي تمثل في إضافة أن هذا التحول لن يكون ممكنا إلا بثمن التخلي عن النسق وبتكفل نشيط بالعلوم الوضعية: بجعل مسافة مع كل ميتافيزيقا للتاريخ، إن الأمر يتعلق فصاعدا بالنسبة لها بإدماج والتفكير حول نتائج مختلف المعارف التي تساهم سواء بشكل مباشر (السوسيولوجيا Sociologie، الاقتصاد (Économie) أو بشكل غير مباشر (السيكولوجيا Psychologie) في ذكاء السلوك.

إن هذا الموقف لا يكتفي بذاته. إنه يفترض وعيا للصلة الموجودة بين الفلسفة والعلوم الموجهة بواسطة تأويل الحاضر، وكذا لتقدير مناسب جدا للمكتسبات المحصلة بواسطة هذه، والتي سعى النظر إليها على أنها مركز جاذبية علوم الإنسان. هذان التوجهان قاداه من جهة أخرى إلى إحداث قطيعة هامة في إبستيمولوجيا هذه الفروع، التي تؤيد برنامج النظرية النقدية. إنها تتضمن رفض جميع الثنائيات التي حاول من خلالها الفلاسفة عادة تقسيم حقل المعرفة (علوم دقيقة/علوم

1 قدم هوركهايمر صيغتين لبرنامج: الأولى («وضعية الفلسفة الاجتماعية ومهام البحث الاجتماعي» (in *Théorie critique*, Payot, p. 65-80 (1931) تنطلق من لزوم إعادة تأسيس فلسفة العقل الموضوعي لـ هيغل بداية من الأخذ بعين الاعتبار العلوم الحالية؛ الثانية («النظرية التقليدية والنظرية النقدية» (1937) (in *Théorie traditionnelle et théorie critique*, Gallimard, p. 15-90 تستل انطلاقا من مثال الاقتصاد السياسي لـ ماركس Marx وتبرر ذاتها بواسطة ضرورة تفكير ذاتي للعلوم، وبوعي لتاريخيتها ووظائفها العملية.

إنسانية/علوم الطبيعة/علوم الذهن/علوم موضوعية/علوم ذاتية، إلخ). لاستبدالها بتعارض وحيد وواضح: تعارض بين العلوم التي تنتمي، مثل أي تكوين ثقافي، إلى حاضر تاريخي، ولكن من دون استخلاص نتائج («النظرية التقليدية *théorie traditionnelle*») والعلوم التي، أكثر من ذلك، تموضع هذا الحاضر وتحوله إلى موضوع للمعرفة، تتفكر إذن بعمق وكأنها مرتبطة به، وتؤكد ميلها أن يكون مفترضاً ومتغيراً عملياً («النظرية النقدية *théorie critique*»)¹. بالفعل، إن هذا الفرق الجلي هنا، والذي يبرز خصوصية معارف الحاضر، بالمعنى الذي يكون معه هذا الأخير في الآن نفسه معرفتها ووجهة النظر التي تتمركز عبرها، تجرّ معها، حسب هوركهايمر، سلسلة بأكملها من الخصائص الإبيستمولوجية، المنهجية والعملية الملاحظة جداً. إنها وحدها بالتالي من يبرر تمثيلاً ثنائياً للعلوم.

وباختصار، يقدم هوركهايمر أربعة قرارات مُؤسّسة بغرض إعادة صياغة (إعادة تشكيل) ضمن سياق ما بعد ميتافيزيقي للموضوع الهيجلي للفلسفة باعتباره فكراً للحاضر. لقد عزل بقوة، داخل الثقافة المعاصرة، مجموعاً دلالياً (المعارف المتمركزة حول الحاضر التاريخي) الذي أخطأته التأويلات الكلاسيكية للعلوم الإنسانية. وهكذا يجدد موضوع خصوصية هذه الأخيرة بتحويل خط التقسيم الذي يسمح بإظهار وجود معارف لا تقبل الرد إلى نموذج علوم الطبيعة: وهو ما يتيح فصاعداً تثمين الفريدة، فالمعارف هي التي توضح الظروف

1 هذه النقطة سيؤكد عليها هابرماس Habermas: لقد توصل هوركهايمر Horkheimer إلى تطوير «تصور جد أصيل للفلسفة. لقد سعى لمواصلة الفلسفة بوسائل أخرى - أي بوسائل متأتية من العلوم الاجتماعية». (Textes et contextes, Cerf, p. 52) سنشير إلى نصوص هابرماس ضمن الترجمات الفرنسية المتوفرة بتعديلها إن اقتضت الحاجة.

والأوضاع الراهنة المحددة لهويتنا التاريخية وأفق فعلنا الممكن. يؤكد بعدها هوركهايمر على الاستمرارية الطبيعية للفروع التي أضحت متفردة عن طريق المسعى الفلسفي، وهو ما يبرر أن جعل من هذا مادته المفضلة. إنه يسمي في الأخير «نظرية نقدية» البحث متداخل الفروع أين تتقاطع فلسفة مخصصة بالعلوم الوضعية، بالخصوص بالعلوم الاجتماعية، وعن طريق عمل إميرقي مدفوع بواسطة الوعي الفلسفي بغايات ورهانات معرفة الحاضر. إن موضوعه الحقيقي سيكون بالفعل تمييز الحالات المرضية، أزمت الحاضر، لأجل تنمية الذكاء الموجود لدى الفاعلين، ومن هنا، جعل الفعل التاريخي المستتير الذي يستهدف التغلب عليها ممكنا. إن وظيفته النقدية إزاء الاستلابات الموجودة وارتباطه بأهمية التدخل العملي التحرري يفسر في نهاية المطاف المكانة السامية والأصالة التي ينبغي أن نعطيها إلى معرفة الحاضر، حسب هوركهايمر.

ومع هذا هناك أسباب للشك أن تكون النظرية النقدية قد انتهت إلى نقطة توازن في تمثيل الذات ما بعد هيغيلية لفلسفة تحولت في الآن نفسه صوب الحاضر التاريخي و صوب العلوم التي تحشاها إميرقيا. هذه الشكوك متأتية في حقيقة الأمر بأنه وبسرعة، منذ بداية الأربعينيات، ومن دون شك جزئيا تحت ضغط الأحداث، ولكن أيضا تحت تأثير الصعوبات المرتبطة ببعض افتراضاتها النظرية، حيث عدّل هوركهايمر عن برنامجه الأصلي. ففي *ديالكتيك العقل* *Dialectique de la raison* وهو الكتاب المؤلف بمعية مساعدته الرئيسي، أدورنو* Adorno، إنه

* تيودور أدورنو Theodor Adorno (1903-1969) فيلسوف وموسيقي ألماني أحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت الفلسفية النقدية، اهتم بالموسيقى فبرز فيها نظريا وتطبيقيا، عمل على تجديد الاستيعاقا انطلاقا من خلفية فرويدية

ينفيه حتى بكيفية معلنة ويعود في الحقيقة، وذلك بإعطائه مظهرًا تشاؤمياً يبدو أنه يبعده عن هيجل، إلى فلسفة التاريخ، أي إلى الفكرة التي ترى أنه بإمكان الفلسفة أن تعمل بوسائلها الخاصة على تشخيص شامل حول العالم المعاصر وأن تنظر إلى العلوم لا بوصفها شريكة، بل باعتبارها أعراض نزعات واتجاهات تتجاوزها. بعد الحرب، حاول بالأحرى الخطاب حول الحاضر التاريخي لديه أن يأخذ شكل حكمة منتقمة تطعن في دناءة ونفاق مجتمعاتنا، وفق نموذج يدين أكثر إلى كتابة الأخلاقيين Moralistes والروائيين Romanciers منه إلى مناهج السوسيولوجيا¹. إن هذا الانفصال إزاء العلوم الاجتماعية يبرز بشكل أكثر وضوحاً لدى أدورنو، وبكيفية مؤسفة جداً بقدر ما أن أدورنو شارك بفعالية في تلك المحاولة لدمج بين النظرية النقدية والبحث الإمبريقي الذي تولد عن هجرة الأعضاء الأساسيين لمدرسة فرانكفورت l'École de Francfort إلى الولايات المتحدة، وحيث أن الدراسة حول «الشخصية المستسلطة personnalité autoritaire» شكلت التظاهرة الأكثر بروزاً². وهكذا أمكن وصف مساره الفكري الحرب وكأنه

ماركسية وهي نفسها الأرضية - مضافة إليها الرؤية النيتشوية - التي قامت عليها النظرية النقدية كما تجلت في كتاب جدل الأنوار الذي ألفه أدورنو من صعبة هوركهايمر سنة 1947 ومن أهم كتبه: فلسفة الموسيقى الجديدة (1948)، مقدمة إلى سوسيولوجيا الموسيقى (1962)، الديالكتيك السلبي (1966). (المترجم)

- 1 Horkheimer, Notes sur le temps présent (1949-1969), Payot.
- 2 لأجل استحضار يستعيد من طرف أدورنو ذاته لهذه المرحلة أنظر: نص 1968 حول «الأبحاث التجريبية في الولايات المتحدة Les recherches expérimentales aux Etats-Unis ضمن نماذج نقدية in Modèles critiques, Payot, p. 230-260 وأنظر أيضاً: جاي، الخيال الجدلي Jay, L'imagination dialectique, Payot, chap. 7.

مدفوع جزئيا بإرادة تبرير ابتعاده مقارنة بالعمل الإمبريقي ومن هنا، عن البرنامج الأصلي للنظرية النقدية¹. فبعض توجهات فكره تدعو إلى ذلك بالفعل: فعلى سبيل المثال، الانكفاء على فلسفة مختزلة في التأمل حول استحالة إنجازها وعلى الرافض التام للعالم الحاضر؛ أو كذلك تهمين عمل الفن، الذي أصبح فصاعدا القوة الوحيدة للاحتجاج الممكن لعالم استنفذت فيه كل مصادر التحرر الاجتماعي والسياسي.

من الصحيح وفي جميع الأحوال بأن كتاب أدورنو، «السوسيولوجيا والبحث الإمبريقي Sociologie et recherche empirique»²، هو الذي يمثل النقطة القصوى للرفض التدريجي من قبل مؤسسي النظرية النقدية لمشروعهم الأولي، والذي يشرح بأكثر وضوح الطروحات التي قادها هذا الأخير. في هذا النص، الذي يقدم مجموع البراهين التي أثارها سنوات فيما بعد أثناء نقاشه مع بوبر* Popper بخصوص المهام المعاصرة للسوسيولوجيا، يشرح أدورنو في إدانة شاملة ومن دون تنازلات للتوجهات الحديثة لهذا الفرع. هكذا،

1 Cf. Wiggershaus, *L'École de Francfort*, PUF, p. 456-484 et, dans une certaine mesure, Habermas, *TAC*, t. 1, p. 387-390. العودة حول هذه النقطة إلى كتاب ويغرهاوس: النظرية النقدية منشورات بيف (فرنسا) وإلى حد ما هابرماس في كتابه المشار إليه بالحروف *TAC* أي نظرية الفعل التواصلي.

2 De Vienne à Francfort. La querelle allemande des sciences sociales, Complexes, p. 59-74.

* كارل ريموند بوبر Karl Raimund Popper (1902-1994) فيلسوف إنكليزي من أصل نمساوي، كان في بداية حياته الفكرية على صلة بالوضعيين المنطقة (جماعة حلقة فيينا) لكنه اختلف معهم وقطع صلته بهم، انتقد زعماء مدرسة فرانكفورت لاسيما تاريخانية المدرسية وماركسيته الجديدة. من أهم أعماله: منطق الكشف العلمي (1935)، بؤس التاريخانية (1944)، المجتمع المفتوح وأعداؤه (1945). (الترجم)

يفسر الانبثاق الحديث لعلم اجتماعي إمبريقي صرف باعتباره تراجعاً وليس تقدماً، والذي صار ممكناً بواسطة اكتمال مناهج البحث، وحيث أن ملاحظته المتميزة هي الصرامة الإحصائية في جمع المعطيات والتدقيق الرياضي في تأويل النتائج. بالفعل، فإن هذا التحول، كما يؤكد، متماسك مع هروب إلى الأمام في التخصص وعمى متنامي إزاء ضرورة ترتيب لمواضيع البحث ضمن سياق الكل الاجتماعي¹؛ تصاحب ذلك نزعة تقديس المنهج (جمع ومعالجة المعلومات) على حساب الملاءمة الموضوعية. في ارتباطها بمأسسة البحث، فإن التطور الأخير للعلوم الاجتماعية قاد أيضاً إلى تنصيب التفاهة الإمبريقية بطريقة واجبة في التفكير²؛ من خلال دعوتها إلى تغييب كل تفكير نقدي، فإنها تبقى حبيسة تصور للمعرفة يتأتى من علوم الطبيعة ولا يرتاب حتى في وجود توجهات بديلة.

غير أن الإدانة هي على الخصوص من مستوى سياسي التي تستدعيها أخطاء العلوم الاجتماعية الحديثة، لأن عدم القدرة على النقد التي أضحت بادية تكشف، حسب أدورنو*، عن طبيعتها العميقة. بانحدارها من دراسات السوق، تكيفها مع حاجات الإدارة، مستقلة

1 «لقد تجاهلت المناهج الإمبريقية (استبيان، حوار، وكل ما يمكن القيام به عن طريق دمجها) ما يحقق الموضوعية الاجتماعية: مجموع كافة العلاقات، القوى، المؤسسات، التي يفعل ضمنها الناس؛ وعلى أضعف تقدير اعتبرت وكأنها عرضية (تلقائية)».

(Adorno, «Sociologie et recherche empirique» (1975), in *De Vienne à Francfort*, p. 62).

2 «اليوم، وفي الوقت الذي يخلف فيه رئيس المكتب العالم، فإن ذهن لا ينظر إليه وكأنه فضيلة لذلك الذي يدمج بكيفية متواضعة وجد متكيفة مع الفريق، لكن هذا النقص يتأسس زيادة على ذلك عن طريق تهئية طرائق بحث لا تعتبر ضمنها تلقائية الفرد إلا قليلاً أي بوصفها عاملاً للاحتكاك» (Ibid., p. 71).

* نسبة إلى أدورنو Adorno.

عن الأفكار المسبقة الخاصة بمجتمعات في الآن نفسه مُجزأة ومحطمة للفرد، فإنها تشكل فصاعدا معرفة وظيفية خالصة، محافظة بنزعتها، باختصار، إيديولوجية. هكذا فإن التحولات المعاصرة للسوسيولوجيا، والتي، من الوهلة الأولى، يمكن أن تبدو وكأنها تمهيدات ليست قادرة على تشریف، بل حتى على تقييم حسب المعايير التي تدعي انتسابها لها، مزاعمها بخصوص النزعة العلمية. ينبغي إذن رفض مسؤولية قطعة الارتباط بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية على هذه الأخيرة.

بسبب راديكاليته، ينهض التحليل الأدورني، كما نراه، من وجهة نظر لفلسفة مُعارض يبدو أنه استنفذ في اتجاه رد فعل محض، لكي لا نقول تجديدي بالنسبة إلى العلوم الموجودة. لأنه لا يجتهد فحسب في إظهار أن لا شيء أساسي يمكن الإبقاء عليه من المعارف الوضعية كما هي مطبقة حاليا، لكن، وأكثر من ذلك، تحتوي في ذاتها على إدانة خالصة وبسيطة لمشروع علم اجتماعي إمبريقي. إن سيادة النظرة الفلسفية على الحاضر تجد مشروعيتها بكيفية أكثر جلاء وأكثر من أي وقت مضى. ويمكن، بهذا المعنى، أن نتحدث عن فشل النظرية النقدية، إذا ما حكمنا عليها على الأقل مقارنة بقصدها الأول، الذي تمثل في إقامة علاقة واضحة بين الفلسفة والعلوم انطلاقا من اقتضاء ذكاء يعكس الحاضر التاريخي. بالفعل، فإن مبادئه الأساسية لم تتمكن من اعتراض، لكي لا نقول أنها شجعت سرا، التأكيد مجددا على الاتجاهات التي سجلت في الواقع رجوعا إلى هيغل، الكاتب الذي كان بالضبط ومن المقترح تجاوزه.

بيد أن النقاش حول السوسيولوجيا في منتصف الستينيات لم يحدد فقط اكتمال دور ما بالنسبة إلى مؤسسي النظرية النقدية. إنما منح أيضا الفرصة إلى أحد الزعماء الشبان، وهو هابرماس، الذي تقدم بوصفه

تلميذا لـ أدورنو، لتحضير بداية جديدة. وفعلا، إذا كانت المداخلات الهابرماسية الأولى¹ يمكنها أن تقرئ عند الاقتضاء بوصفها مجرد تعليقات على أقوال هذا الأخير، فإنها طورت بالفعل منظورا ضمينا سلفا نقدياً إزاء الإداة الأدورية للعلوم الاجتماعية الحديثة². بأكثر تحليل وتميز في لهجتها، فقد سعت إلى تجنب تنحية شاملة للمعارف الموجودة: إن توضيح أخطاء السوسيولوجيا يتم باسم ما يمكن لهذه الأخيرة أن تكون عليه، وإذن لاهتمامات خاصة بعلم اجتماعي مستقل، وليس بناء من حكم فلسفي مشرف، مبال إلى مراجعة والتشكيك في المبدأ ذاته لمعرفة إمبريقية بالوقائع الاجتماعية. يمكننا أن نتصور، وضعيا، ما يؤسس انعطافا كهذا وهذه الثقة الممنوحة للمعارف: يريد هابرماس أن يعطي لبرنامج النظرية النقدية فرصته لمناقضة التطور اللاحق لمؤسسيه، أنها يؤكد ضدهم على أن التغيرات التاريخية والتحوليات في السياق الفلسفي والعلمي الحاصلة منذ الثلاثينات أظهرت خصوبة وليس بطلان للمشروع النقدي، ذلك المتعلق بفلسفة تفهم على أنها إدراك يفكر للحاضر التاريخي وتبحث، حتى تصوير كذلك، بتمفصل خطابها على العلوم الإمبريقية.

1 «Théorie analytique de la science et dialectique», «Contre le rationalisme disséqué à la mode positiviste», in De Vienne à Francfort.

2 سيكون هابرماس أكثر وضوحا في النص اللاحق جوانب فلسفية وسياسية *Précis philosophiques et politiques*, Gallimard (p. 256) أين يتأسف بأن عمل أدورنو ساهم في إضفاء المشروعية على اتجاه مضاد للإلهام النظرية النقدية: «إن نقد العقل الأداتي يمكن [...] أن يستغل كمفتاح لهيرمينوطيقا الأعماق لها القابلية على مهاجمة أي نوع من التوضيع لوجودنا المتدهور؛ إنها تكتفي بذاتها وليست بحاجة أن تستتبع النظرية الاجتماعية بعمل إمبريقي».

مع هذا فإن إرادة الاستعادة هذه ليست ساذجة. ففي وقت مبكر، شرع هابرماس في عمل حذر من أجل إبراز نقائص البرنامج الأصلي للمدرسة* الذي قال أنه ينتمي إليه ويكشف ضمنه ما يشكل عقبة في سبيل تحقيق مراميه الواعدة. بالجملة، يبدو أنه يربط هذه النقائص بقبول غير مفكر فيه من طرف النظرية النقدية للملامح الأكثر رفضا للإرث الماركسي. على سبيل المثال، يقترح هابرماس، بأن هوركهايمر على الرغم من ندائه إلى تعددية التخصص، أصر على النظر إلى الاقتصاد السياسي لـ ماركس Marx* وكأنه نموذج المعرفة النقدية للحاضر: فقد كان ذلك من دون شك بمثابة إعطاء قاعدة ضيقة لبرنامجه، علاوة على أن موقفه هذا تزامن مع، بكيفية جد إستشكالية، دعوى تفوق مبدأ «المنهج الديالكتيكي La méthode dialectique»، الذي يعتقد أنه بات متجاهلا من قبل العلوم التقليدية. كذلك، فإن هوركهايمر، وفي الثلاثينيات، لم يكن متحررا، على ما يبدو من الفكرة

* ماركس (كارل) Marx (Karl) (1818-1883) فيلسوف واقتصادي اشتراكي ألماني، طورَ نظرية وإيديولوجيا أصبحت تحمل اسمه وهي الماركسية التي أصبحت لها صيغ وتنوعات في التجارب التي طبقت فيها (السوفييتية اللينينية والسنتالينية والتروتسكية، الصينية الماوية، الكوبية.... إلخ)، وقد بنيت الماركسية على المبدأ المادي في تحريك الاقتصاد، التاريخ، الإيديولوجيا والمجتمع وهو ما تمثله المادية الجدلية (وسائل الإنتاج ملكية جماعية تمثل البنية التحتية وعلاقات الإنتاج تمثل البنية الفوقية) والمادية التاريخية (التحول من الرأسمالية إلى الشيوعية التي تسود فيها البروليتاريا) كما بنيت أيضا على رفض مهمة التفسير بل الدعوة إلى التغيير الذي يحمل بعدا ثوريا وعلى الصراع الطبقي. أعلن مع إنغلز البيان الشيوعي سنة 1848 وأسس الأممية الأولى. من كتابات ماركس التي أثرت في التاريخ الحديث والمعاصر نذكر: نقد الفلسفة السياسية لـ هيغل (1843)، أطروحات حول فيورباخ (1844)، العائلة المقدسة (مع إنغلز 1845)، بؤس الفلسفة (1847)، خطاب حول التبادل الحر (1848)، أسس نقد الاقتصاد السياسي (1857-1858)، رأس المال (1867). (المترجم)

التي مفادها أن البروليتاريا تشكل بامتياز القوة الحاملة للانعتاق البشري، والتي يتوجب إذن على الخطاب النقدي أن يستند إليها بكيفية مفضلة. منذ ذلك الوقت، وفي فترة الفاشية المنتصرة، تلاشت هذه الصورة، وتوجب للأسف أن تصحب معها فكرة معرفة وثيقة الصلة بمغزى التحرر وتُخلي مكانها لتشاؤم تاريخي مطلق يرخص للتخلي عن الارتباط بالعلوم.

يتعلق الأمر إذن بالنسبة إلى هابرماس بتخفيف النظرية النقدية من حمل العناصر التي يمكن أن تلحقها مرة أخرى بفلسفات التاريخ، والتي فرضت نفسها في النهاية، تحت صور معدلة، في الأعمال المتأخرة لـ هوركهايمر وتلك الخاصة بـ أدورنو. لهذا، يجب تقبل وتطوير بوسائل جديدة وبكيفية متعلقة المفاهيم التي وجهتهم حدسيا: إن تفرد المعارف المتعلقة بالعالم المعاصر، العلاقة بين المعرفة والمغزى التحرري والنقدي، الارتباط بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية. لا سيما، وأن تمفصل هذين التأليفين بثبات وعمق بأكثر مما توقف عنده هوركهايمر بات مطلوباً. إن أصالة هابرماس تكمن في تنفيذ ذلك على أساس من الاهتمام بالتراث السوسيولوجي، في تظاهراته المختلفة وامتداداته الحالية، والتي ليس لها ما يعادلها لدى هوركهايمر. بكيفية استفزازية مقارنة مع الدوغما التي باتت لدى مؤسسي مدرسة فرانكفورت اختزالاً هذا الفرع في الإيديولوجيا، إنها السوسيولوجيا، وليس الاقتصاد، مثل هو الحال في الماركسية Marxisme الذي يكون مكرساً باعتباره الفرع الأساسي القائد لتحليل العالم المعاصر. إننا نريد أن ندرس هنا نتائج هذا القرار الأول، الذي يحيل في خصوصيته إلى الاسترجاع الهابرماسي للنظرية النقدية. فما هي طرائق التملك الفلسفي للعمل السوسيولوجي التي ساعدت على انتشارها؟ ما الذي قدمته لفهم

الممارسة الفعلية للسوسيولوجيين؟ لا يمكن اقترح إجابة وحيدة حول هذه الأسئلة. ذلك أنه يمكننا القول بأنه إذا كانت نية هابرماس الجلية، منذ فترة تعليقه على نص أدورنو، تتمثل في إقامة فكر فلسفي للحاضر التاريخي يتأمل علاقته بالعلوم الاجتماعية وقد بقيت سليمة، مُكوّنة حتى أحد مواضيع عمله. بالمقابل، فإن الصياغات المحددة والتي أفرزتها هذه النية قد تغيرت بشكل معتبر. إن الفكرة المزدوجة في الانتساب الأساسي للفلسفة وللعلوم الإنسانية الموجهة بواسطة تحليل ما هو معاصر قد توقفت، مثلما هو الحال في المحاولات الأولى لـ هوركهايمر، وهي بديهية غير متعلقة لذا؛ عن أن تكون مشكلة بعينها، فغدت إذن خاضعة لعمل خصب بإعادة تعريف دائم. مع هذا، يمكننا الفصل لدى هابرماس بين ثلاث نظريات متتالية في علاقة العلوم الاجتماعية، وبالأخص السوسيولوجيا التي يفضلها. في مرحلة أولى، يجعل من مهمة الفلسفة تأسيس هذه الأخيرة؛ ثم يتوقع علاقة أكثر حيادا في التعاون فيما بينها؛ وفي النهاية، يبين كيف أن هذه العلوم يمكنها، إلى حد ما، أن تكون بصورة إيجابية مندمجة في الخطاب الفلسفي. هذه النظريات تمثل كل واحدة تطورا ممكنا حول دافع معرفة الحاضر الذي هو في الآن نفسه تأملي وامبريقي، لكن، في جزء منها، تشكل [أي النظريات] أيضا مراحل حل تدريجي لمشكل التمثيل بين الفلسفة والسوسيولوجيا. إن غايتنا تكمن في إعادة تشكيل التماسك وتقييم المساهمات.